مسلمو روسيا والمؤتمر الاسلامي

قدم العاصمة في الشهر الماضي رجل كبير الهمة واسع الاطلاع من مسلمي روسيا اسمهُ اسمعيل بك غصبرنسكي وهو صاحب جريدة " ترجمان " التركية التي تطبع في بلاد القريم وغرضهُ دعوة المسلمين من كل الاقطار الى عقد مؤتمر اسلامي عام. فالقى خطبة نفيسة في هذا الموضوع في اول نوفمبر في الفندق المعروف بالكونتنتال على جمع كبير من العلماء والكبراء القاها باللغة التركية ثم تليت ترجمتها العربية وهذا نصها

شيء من احوال المسلمين في البلاد الروسية

نشأت لمسلمي روسيا في الازمان السالفة دولتان كبيرتان احداهما دولة " آلتون اوردو " وكانت عاصمتها مدينة « سراي » قرب بحر قزوين والاخرى الدولة التيمورية . ولما سقطت هاتان الدولتان الكبيرتان وقامت على انقاضهما خانات (امارات) صغيرة متعددة وهي امارة سيبيريا وامارة قزان وامارة استراخان وامارة قريم وامارات القانقاس نشأت في آسيا الوسطى امارات بخارى وخيوى وخوقند وعدة جمهوريات صغيرة — اذا صح هذا التعبير — في تخوم الدولة الايرانية الشمالية

ثم دار الزمان دورتهُ وقدر لامارتي بخارى وخيوى ان تصيرا داخل حدود الممالك الروسية وتدخلا تحت حمايتها . واما بقية الامارات فقد استولت عليها الروس استيلاء كاملاً وصارت الآن ولايات روسيَّة صرفة

اول الامارات سقوطاً امارة قزان وسيبيريا واما الجمهوريات التركانيَّة فلم تخضعها روسيا الاَّ في العهد الاخير

نزل معظم مسلمي روسيا في آسيا وفي القانقاس وقسم عظيم منهم يقطنون الولايات الداخلية والشرقية من اوربا الروسية وقليل في شبه جزيرة قريم

وعدد المسلمين الساكنين في القانقاس الشرقية وداغستان وفي تركستان تسعون في المائة بالنسبة لغيرهم من الشعوب هناك . واما في سيبيريا فهم الاقلون . والساكنون منهم في الولايات الشرقية من اوربا الروسية يختلطون بالروس وسائر الاجناس . وهم الاكثرون في ولاية أوفا اذ هم هناك سبعون في المئة بالنسبة لغيرهم

واما عدد مجموعهم فيتعذر — بحسب احصاء سنة ١٩٨٧ — سبعة عشر مليون نسمة . واذا ضممنا اليهم أهل بخارى وخيوى جاوز عددهم ٢٠ مليوناً

ولا ينبغي ان يفوتنا العشرة الملايين من الترك الساكنين في تركستان الصينية (كشغر) الذين تجمعهم وسلي روسيا أواصر اللغة والآداب وبذلك تألف هناك "مجتمع جنسي" مؤلف من ثلاثين مليون نسمة وعشرون من هؤلاء مليون ومليون واحد شيعة . واما من حيث الجنسية واللغة فكلهم ترك سوى ثمانمائة الف من قبائل الشراكسة القاطنين في جبال القافقاس وهم مع ذلك الملم باللغة التركية

يشتغل مسلمو روسيا بالزراعة وتربية المواشي وبالتجارة بحسب ما تسمح لهم مواطنهم . وكانت لهم في سالف الايام صناعات تذكر ولكنها اخذت تسقط رويداً رويداً من مكانتها الاولى بمزاحمة مصنوعات المعامل الاوروبية الحديثة كما هي الحال في الاقطار الاسلامية قاطبة . والقريميون منهم معروفون بتعهد البساتين وانماء الفواكه الفاخرة الطيبة

والقوقاسيون أو القافقاسيون يشتغلون سيما الغالب بتربية دود القز وصنع البسط والطنافس الجيدة . وقد انتشرت بينهم في العهد الاخير زراعة القطن انتشاراً عظيماً

وأما التركستانيون فيقومون على تربية دود القز وانماء الفواكه وزراعة القطن

والجهات الشمالية من آسيا الوسطى عبارة عن القفار والاراضي القاحلة و يندر فيها الماء العذب السائغ وتنقلب في ارجائها قبائل رحالة بمواشيها وانعامها

في ولايات اوربا الروسية والقوقاس اربع مشيخات اسلامية . ثلاث منها للسنيين وواحدة للشيعة . ولدى كل مشيخة مفت (او شيخ اسلام) وثلاثة قضاة او اعضاء وتنظر هذه المشيخات في الامور الدينية البحتة كالنكاح والطلاق والمواريث والنسب وتقسيم التركات وتوزع السجلات على أئمة المساجد كي يثبتوا فيها المواليد والوفيات وعدد الطلاق والنكاح وما اليها مما يقع في احيائهم

وتقسم التركات الاسلامية في روسيا على وفق الشريعة الاسلامية . وكذلك الوصايا الاسلامية لا يمسها القانون الروسي بسوء

في كل قرية اسلامية — في اوربا الروسية وفي القريم — مسجد وكتّاب . واما القرى الكبرى ففيها عدة مساجد وعدة كتاتيب

وفي اوربا الروسية والقوقاس سبعة آلاف مسجد وثمانية آلاف كتّاب وما ينيف على مائة مدرسة دينية . واكثر مسلمي روسيا عناية بأمور التعليم والمدارس المسلمون الساكنون في الولايات الداخلية الروسية

وعدد المتعلمات من البنات في الكتاتيب يساوي ثلث المتعلمين من الذكور . ومما يحسن

ذكروا ان جمعية من الفتيات المسلمات تعمل في مدارس البنات التهيزية الروسية . وكذلك تعلم اليوم في القسم العربي من جامعة بطرسبورغ اربع عشرة فتاة مسلمة . وكانت دروس الطب فيها فتاتان مسلمتان وهما تمارسان اليوم صناعة الطب . وكان دخول السيدة « رضية » احدى تينك الطبيبتين هذه الجامعة بسعي المرحوم شاكر باشا السفير السابق للدولة العثمانية في بطرسبورغ

وليس لدي الآن تفصيل بشأن الكتاتيب والمدارس الاسلامية في آسيا الروسية ولكني اعلم ان المدارس الدينية كثيرة ملأى بطلاب العلوم في مدينة بخارى وخوقند وسمرقند وغيرها من حواضر البلاد التركستانية

واني لا اتمالك ان اذكر هنا بكل اسف ان تلك المدارس لا تبرح تسود فيها الفوضى والخلل في طرق التعليم . ومن اجل ذلك لا تأتي بفوائد يقتضيها هذا الزمان . ونطاق برجراماتها ضيق من انكار الاساتذة القائمين فيها بالتعليم والتدريس

وليس عندنا الى الآن مدارس لتعليمين والمعلمات ولكن فكرة انشاء المدارس من هذا القبيل قد حدثت في العهد الاخير

انتشرت بين مسلمي الروس فكرة الارتقاء والتقدن منذ ربع قرن انتشارًا يذكر . ومن ثمرات هذه الفكرة انهم جعلوا في العهد الاخير يطبعون كتاتيبهم ومدارسهم وينشرون المؤلفات المفيدة في العلوم العصرية والاديبات التركية وطفقوا ينشئون المعاهد العلمية على الطراز الحديث ويرسلون التلاميذ الى المدارس الروسية والاوربية والى الاستانة ومصر لتلقي العلوم الحديثة العصرية والعلوم العربية والدينية

ويناهز عدد الكتب المنشورة بين مسلمي روسيا في العلوم العصرية والادبية نحو خمسمائة كتاب

وعدد المطابع الاسلامية الموجودة في روسيا كما يأتي :

ثلاث في بطرسبورغ وثلاث في قزان واثنتان في تفليس واثنتان في باكو وواحدة في باغجه سراي . وفي قزان ثلاث مطابع روسية ذات حروف عربية فيكون المجموع ثلاث عشرة مطبعة . واما الصحف الاسلامية المنشورة في البلاد الروسية فهي صحيفتان في بطرسبورغ واربع في قزان وثلاث في اورنبورغ وثلاث في باكو وواحدة في طاشكند قاعدة تركستان اليوم وواحدة في تفليس وواحدة في باغجه سراي . واحدة من هذه الصحف تصدر باللغة العربية والبقية بالتركية . واحدى الصحف التركية تكتب بلهجة تقرب من لهجة الترك العثمانيين والبقية تكتب الآن بلغات تركية مختلفة باختلاف الاقاليم . والرجاء ان تعد

لغات هذه النحف او تتقارب كل التقارب في مستقبل قريب او بعيد. وهذا الاتحاد اللغوي غاية ما يرمي اليه المصلحون والمنورون منا

وثلاث صحف من تلك الصحف علمية ادبية . والبقية سياسية واما من جهة الخطة فثلاث عشرة صحيفة منها وطنية معتدلة واثنتان ترميان الى غاية « اشتراكية ديمقراطية » وفي روسيا الثناعشرة جمعية خيرية اسلامية غرضها اسعاف المعوزين والاخذ بايدي البائسين والمساكين ولها قوانين مصدق عليها من الحكومة

ويتجاوز عدد المكاتيب التي اصلح امرها الف كتاب تعلم فيها القراءة التركية والكتابة والقرآن والعقائد الدينية ومبادئ الحساب والجغرافية والتاريخ الاسلامي وشيء من علم حفظ الصحة

واما المدارس الدينية فقد اصلحت منها مدرسة في قزان واخرى في اورنبورغ وثالثة في اوفا . وفي تلك المدارس تدرس اليوم العلوم الرياضية والطبيعية وتقويم البلدان والتاريخ عدا العلوم العربية والدينية بانواعها

ولقد نشأ لمسلمي روسيا افراد جادوا باموالهم وانفسوا املاكهم في سبيل ترقية المعارف واعلاء قدر الامة والملة . واخص منهم بالذكر المرحوم الحاج نعمة الله قرامشف البيري الذي بذل اموالاً طائلة في سبيل انشاء مئة كتاب ومئة مسجد . وانفق مبلغاً عظيماً لتأسيس مكتبة عامة اودعها انفس الكتب واندر الآثار . اكرم الله مثواه واحله مقاماً كريماً . وانفق التاجر القزاني المرحوم احمد الحسيني في انشاء معاهد العلم وترقية المعارف ثلثمائة الف روبل . وانشأ شقيقه عبد الغني الحسيني مئتي كتاب على نسق حديث وقد نشر جمعية الشهاد فكرة اصلاح المكاتيب وكذلك الاصول الحديثة المعروفة بالاصول الصوتية التدريجية الى قوم الصين . وذلك بانشاء المكاتيب في تلك الديار النائية كما انشأها في الولايات الروسية المتوسطة . جزاهم الله خيراً وعن العلم والفقراء جزاء حسناً

ومن المقضي علينا الانسانية ان نذكر اسمه مقروناً بالاجلال والاحترام الحاج زين العابدين تاغيف الباكوي لان خدمة هذا الثري الكريم في سبيل نشر العلم واسعاد الفقراء اكثر وأجزل . انشأ هذا الرجل في داغستان مائة مسجد ومائة كتاب . وانشأ في ضواحي مدينة باكو حقلاً انموذجياً . وانشأ للدفاع عن الحقوق الوطنية جرائد متعددة باللغة الروسية والتركية . وبذل ملايين من الروبلات لتعليم اناس كثيرين في الجامعات الروسية والاوربية . وما معظم الاطباء والمحامين والمهندسين المسلمين الذين نفتخر بهم الا من آثار همة هذا الرجل

الكريم . ولم ينس هذا الرجل العظيم المسلمات ايضاً فقد انشأ في مدينة باكو مدرسة فخمة للبنات انفق على بنائها فقط عشرين الف جنيه . ووقف عليها وقفاً يأتي بايراد قدره ثلاثون الف جنيه سنوياً ولا يبعد ان تصبح هذه المدرسة ذات يوم "المدرسة الجامعة" للاناث

ولم يحتزئ هذا الرجل بمساعدة من في روسيا فقط بل مد يد المعونة الى ايران ايضاً . وقد طبعت هناك كتب جمة على نفقة هذا الرجل الكريم . ويقدَّر ما ساعد به المكتوبين والبائسين في البلاد الفارسية بمليون روبل وزيادة

ايها السادة : شاركوني في الدعاء لهذا الرجل الناصع للانسانية والخادم للفضيلة . اطال الله بقاءه وحفظه من كوارث الزمان . واما الاحياء الذين انشأوا كتاتيب او كتابين ومدرسة او مدرستين فهم كثيرون جداً يتعذر عليَّ الآن احصاؤهم . وما الخطوة التي خطوناها الى الامام في ميدان التقدم الاَّ بفضل هذه الكتاتيب والمدارس التي أُسست ووصلت بهمة أمثال من ذكرنا أسماءهم من اولي الهمم العالية الى ما وصلت

وها قد آن لنا ان نوجه وجه الكلام الى الامور التجارية والاقتصادية

ان لدى المسلمين الساكنين في آسيا الوسطى واوربا الروسية قوة تذكر في هذا الشأن . ولكنهُ لا بدَّ من اعدادها وتهيئتها بنشر العلوم والمعارف بينهم . لان الاقوام الذين يحق للمسلمين ان يباروهم في ساحة الاعمال التجارية أشداء اقوياء في ما يمارسون . ففي روسيا — عدا من يسكنون منهم الولايات الداخلية — من الاراضي ما يكفيهم للاستغلال . وقد تولدت بينهم فكرة الحرص عليها وعدم تمكين الآخرين منها تولداً يشرِ بحسن المئة ان شاء الله . واهل تركستان بارعون جداً في امور الفلاحة والزراعة . لا يقتدر على نزع الارض الفائقة من أيديهم — من الوجهة الاقتصادية — لا الروس ولا مهاجرو الالمان . وهم يكدحون في امر الزراعة كدحاً لا يعرفون فيهِ الملل والسآمة . فهم يشبهون من هذه الوجهة كل الشبه المصريين . ولكن اراضيهم الفائقة اكثر واسع بكثير بالنسبة الى القطر المصري . ونصف القطن الذي تحتاج اليهِ معامل المنسوجات الروسية يرد من الخارج واما النصف الآخر فهو ثمرة كدح اهل تركستان وحدهم . فزراع القطن في تركستان يجلبون من روسيا الاوربية الى بلادهم مبالغ طائلة

واما المسلمون القاطنون في مدينة قزان وما يتاخمها من البلدان فلهم كثير من معامل الصابون والجلد . ومن معامل الجوخ ما فيهِ ثلاثة آلاف عامل . ومن جملتها معامل "آفورين" الشهير الذي يمد الجيش الروسي من الجوخ

ما يناهز مليون متر . وللقرى الشهير الحاج زين العابدين تاغييف الذي تقدم ذكره معمل للنسوجات القطنية فيه اربعة آلاف عامل . واكثرهم من المسلمين وكذلك المهندسون وزعماء العمال فيه . واما مديره فكان من قبل انكليزياً ولم تبق اليوم حاجة الى الانكليزي اذ جعل صاحبه يديره بنفسه

وهناك بيوت تجارية اسلامية كبيرة تشتغل باستخراج النفط والبترول يبلغ ما يتعامل به احدهم عشرة ملايين روبل

واكثر السفن التي تسير في بحر قزوين ملك للمسلمين

والفواكه الطيبة التي تتفكه بها روسيا كافة يؤتى بها من بساتين المسلمين في القريم

لا يظنن ظان ان ذلك ارتقاء عظيم وتقدم عميم . لان كل ما ذكرناه عن مسلمي روسيا هو شيء طفيف تافه جداً بالنسبة الى الامم الراقية الحية التي تخطو في سبيل التقدم والارتقاء بخطى الجبابرة وتسير في سبيل الخير والصلاح بعزم شديد . ولكننا لا ينبغي لنا ان نيأس ونتقاعد عن النظر في ما يرقي شؤوننا ويصلح حالنا اذ كل من سار على الدرب وصل

ولا شك ان مسلمي روسيا يستفيدون ويفيدون من الانقلاب الذي حدث في روسيا ومن دستورها الذي هو ثمرة ذلك الانقلاب استفادة كبيرة . وقد تنبهت افكار الامة في السنين الثلاث الاخيرة تنبهاً عظيماً واتسع نطاق الآمال اتساعاً جسيماً . حتى ان انقلاب روسيا اثر تأثيراً يذكر في مسلمي روسيا والمام بفوائد جمة . ولست الآن بمكتف بتعداد تلك الفوائد جملة بل احب ان اذكر هنا اهمها واعودها عليهم بفائدة

ايها السادة : ان مسلمي روسيا انشأوا لانفسهم حزباً سياسياً دستورياً ديمقراطياً باسم " اتفاق مسلمي روسيا " فاجتمع مندوبو المسلمين في الولايات المختلفة في اغسطس سنة ١٩٠٥ في مدينة " نيجني نوفغورد " غير ان الوالي لم يسمح بعقد الاجتماع رسمياً . ولم يكن الوقت يتسع لتحصيل الاذن من العاصمة . فعقد المندوبون اجتماعهم على ظهر باخرة استأجروها للتنزه عليها في نهر " فولجا " . فقررت الآراء في ذلك الاجتماع على انشاء (حزب اتفاق المسلمين) وانشاء فروع له في الولايات للذب عن حقوق المسلمين السياسية والاقتصادية والادبية

وقد انشئت لهذا الحزب الذي يتقوى يوماً فيوماً فروع في بعض الولايات بالفعل ورفعت قوانينها الى الحكومة لتصادق عليها . وكذلك عقد المسلمون سنة ١٩٠٦ اجتماعاً غير رسمي في بطرسبورغ وآخر رسمياً في " نيجني نوفغورد " وبلغ عدد الحاضرين في الاجتماع الثالث سبعمائة رجل وامتدت مدة المفاوضة والمناقشة خمسة ايام

وبفضل هذه الاجتماعات انتشرت الافكار السياسية بين المسلمين انتشاراً زائداً فتسنى لهم ان ينتخبوا منهم اربعة وعشرين نائباً للدوما الاولى و ٣٦ نائباً للدوما الثانية . ولا يسعنا هنا الا الاعتراف بان هذا النجاح الباهر في الانتخاب في تينك المرتين لم يحصل بهمتنا فقط بل كان فيه للقوانين العادلة ومعاملة احرار الروس لنا معاملة شريفة وتأثير كبير لا ينكر

نعم ان احزاب التقهقر من الروس يتفرون على " اتفاق المسلمين " نظير المحافظ المستثيط ولكنهُ غير خارج عن دائرة القانون حتى تكرههُ الحكومة وليس حزباً يسعى لايقاع التفرقة بين الرعايا الروسيين حتى ينفرد الاحرار من الروس . ومما يحسن ذكرهُ هنا ان المسلمين يعيشون مع الروس على غاية من الوفاق والوئام . وامة الروس كثيرة الجنوح الى الائتلاف والسلام . وهم لا ينظرون الى المسلمين نظر المتهين المزدري بل يعاملونهم معاملة القرين لقرينهِ وابواب الجمعيات العلمية والادبية والاندية والمدارس كلها مفتحة في وجوه المسلمين اذا هم رغبوا في الالتحاق باهلها

نعم قد حدث في الايام الغابرة بتأثير الكنيسة وجماعة المبشرين بعض الحوادث المؤلمة ولكنها قد زالت اسبابها بعد ان اطلت الحرية كل الزوال ونؤمل ان تحسن احوالنا في المستقبل اكثر مما تحسنت . رأينا كثيرين ممن اكرهوا زمن الاستبداد على التنصر قد عادوا الى الاسلام وكذلك انتحل الاسلام الناس من الروس الاصليين رجالاً ونساء . والفضل في ذلك كلهِ لحرية التي ترقى بها الامم وتكمل الانسانية

مسألة التعليم العام

اذا ارادت معظم امم الارض ان تدخل في دور التمدن والرقي يكفيها النظر في مستقبلها فقط وعلى العكس من ذلك الامة الاسلامية فانها مطالبة بان تمد بنظرها الى الماضي ايضاً فليس للامم الاخرى في غابر ازمانها ما يستدعي الالتفات لمجدهِ . اما الامة الاسلامية فان اعوامها السالفة كلها عبر وحسنات رقي ونجاح . ولما كانت الامة الاسلامية الحاضرة تمتاز على غيرها في هذا المبدإ فلا بأس من ان تعيد نظرة الى الوراء خصوصاً في مسألة التعليم وانشاء المدارس

ان مصر هذه التي تعد منبعاً للمعارف ومهداً للمدنية وان كانت في سالف ايامها بقي منذ ٤٠ قرناً اشتهرت بارتقائها في العلوم الا ان هذه النعمة ما نعمت اذ ذاك غير كونها آلة لتوسيع نفوذ طائفة الكهنة ووسيلة لتقوية اهوائهم

ثم انتقلت القراءة والكتابة الى ديار اليونان فظهرت فيها عدة مجامع علمية كمدارس

سقراط وافلاطون وارسطاطاليس لم تكن هذه الجوامع لم تكن على شكل مدارسنا اليوم بل كانت اشبه بمدارس المذاكرة خاصة يختلف اليها المولعون بالبحث والمناظرة وعلى ذلك فانها لم تكن عامة للتدريس يهرع اليها كل طالب . وانتقلت المدنية اليونانية بعد ذلك الى الرومانيين ثم ظهرت النصرانية بظهور الدولة القسطنطينية فتقدمت معها قوانين ادارة الملك وعلم الحقوق تقدماً عظيماً ولم تتنبه فيهم ايضاً فكرة تعميم التعليم فبقيت هذه المسألة غامضة غريبة عن الافكار الى ان نبض الله تعالى لمسلم الاسباني الامة الاسلامية التي اهتدت الى هذه الفكرة لاول وهلة فاخذت مسألة التعليم العام بسبب عنايتها حظها من التوسع والانتشار

ومنشأ ذلك الاسلام نفسه لانه كما اتى بالتوحيد اتى ايضاً بوجوب تعليم العالم . فلقد كان من مقتضى ذلك ان المسلمين بنوا عند كل معبد تقام فيه الشعائر الاسلامية كتاباً او مدرسة للتعليم العام مجاناً . فاصبح التعليم العام او التعليم المجاني من جملة الخيرات التي انجبتها المدنية الاسلامية في العالم الانساني . ثم لم تلبث هذه النعمة العظمى في ايدي المسلمين زمناً طويلاً حتى انتقلت منهم الى الامم الغربية وهناك نالت ما نالت من الحفاوة والاجلال فتقدمت تقدماً باهراً وانتشرت انتشاراً عظيماً

فوا أسفاه على هذه الخسارة التي حلقت بنا ووا أسفاه على ذلك الاهمال الذي افضى بنا الى ضياع هذه النعمة من ايدينا بعد ان ورثناها عن آبائنا . لقد قصرنا في حفظها تقصيراً لا مزيد عليه . فالمعارف التي تركها لنا الاسلاف بقيت طفلة في مهدها ولم نعمل على انمائها بل المدارس والمعاهد العلمية التي هي تذكار المتقدمين لنا لم نسعَ في ترقيتها بدل ان نعمرها ونرفع اعلام مجدها السابق سعينا في تخريبها او هدمها

ان تلك المعاهد العلمية التي نشأ منها امثال ابن سينا والفارابي وابن رشد والغزالي ومحيي الدين بن العربي اصبحت منذ عدة قرون دوراً للحيزة الضعفاء ومكناً للعطلين

ولم يكن السبب في حالتنا هذه الا التكاسل والاهمال الذي اسبل ستار الغفلة علينا وحال دون تنبهنا الى حالة الامم الاخرى

اما الآن فقد انبل ولله الحمد والثناء على الامة الاسلامية دور اليقظة فأخذت الرغبة في التعليم تتولد في كل جهة من الممالك الاسلامية فاصبحنا نسمع صدى بعض الافراد والحكومات للتفكير في شؤون التعليم والمدارس ولكن ذلك من سوء الحظ لم يبلغ الخطة المطلوبة . نحن معشر المسلمين منذ ثمانية قرون قد تركتنا لاهالي اوربا خزائن كثيرة وخزائن من المعارف ولم نطالبهم اثناء هذه المدة بردها الينا . ولكن قد حان الآن وقت الاعادة

فعلينا ان نستزيد منهم مستزيداً يحمل ما توفر لسيهم حتى الآن من غلتها . ولا يقال هنا ان الشرق مدين للغرب اذ ليس هو مدين الاَّ بالشعب الذي لا يساوي شيئاً اذا قيس بالعلوم والمعارف التي في حقوق الشرق على الغرب فتَمَيَّن الغرب لذا اعظم بكثير من دينا له وعلى الدائن ان يطالب المدين

وليست هذه الكلمات من بنات افكاري الخاصة كلاَّ بل يقولها نوابغ المتفنن الالماني ودراري العالم الامريكي وما سأعرضهُ ايضاً مما يثبتهُ تاريخ التعليم

لا ينكر اليوم احد من العقلاء المستنيرين ضرورة التعليم العام للنوع البشري وخصوصاً للامة الاسلامية فان ديننا القويم يحثنا عليه ويصديق هذا الامر وقبوله وابرامهِ ووضعهِ موضع الاجراء . وفي نظري ان هذا الامر ليس من قبيل المسائل الخلافية حتى يتناقش فيهِ بل هو امر ديني قطعي فما علينا الاَّ ان نتناقش في كيفية اجرائهِ وايجاد الطرق القويمة الموصلة الى هذا المقصد الجميل فقط

ولقد اثبتت تجارب اعظم الامم المتمدنة في هذا العصر انهُ لا يمكن تعميم التعليم ونشرهُ الاَّ بوجود كتَّاب واحد لكل ستين اسرة من الامة

واما طريقة اجراء العمل فتكون بحسب الميزان الآتي : —

لو فرضت مملكة من الممالك يسكنها نحو عشرة ملايين نسمة فمقدار ما يلزمها من الكتاتيب يتعين بقسمة هذه العشرة الملايين على خمسة ثم تقسم الحاصل وهو مليونان على ستين فيبلغ عدد الكتاتيب على هذا الحساب نحو ثلاثة وثلاثين الفاً وهذا هو المقدار الكافي لعشرة ملايين نفس

فلو بلغت مصاريف كل كتَّاب مع نفقات الادوات ومرتبات المعلمين نحو ٤٠ جنيهاً في السنة يكون المجموع ١٣٢٠٠٠ جنيه . فاذا اضفنا اليهِ مبلغ ٢٠٠٠٠٠ جنيه وهو ما يلزم للانفاق على ادارة تلك الكتاتيب وغيرها من مدارس المعلمين بلغ ما يلزم للتعليم الابتدائي العام مليون ونصف من الجنيهات سنوياً

وهذا لاشك مبلغ جسيم الا انهُ لا ينبغي ان يروعنا بجسامتهِ لان الفائدة التي تستفيدها من هذا المشروع مادية كانت او معنوية اعظم وارفق بكثير من ذلك المبلغ . فما نسبة مبلغ ١٥٠٠٠٠٠ جنيه لعشرة ملايين نسمة الاَّ نسبة جزئية جدًّا تقضي بدفع ١٥ قرشاً على كل نفس في السنة او ٧٥ قرشاً على كل اسرة . وربما يقال هنا ان طائفة العمال لا يستطيعون دفع ذلك . فنقول كلا لاننا لو فرضنا ان عاملاً يشتغل في السنة ٣٠٠ يوم فيكون حاصل

قسمة ٧٥ قرشاً عليها مليمين ونصفاً فقط وهو ما يغالب بالتصادم من سكة الترمواي الذي لو بلغ خمسة قروش مثلاً لا يكلفهُ اخراج ذلك منهُ الاَّ ان يتنازل عن فنجان من القهوة يتناولهُ يومياً وعن سيجارتين على الاكثر

فبقي علينا ان نبحث في النفقة اللازمة لبناء هذه المكاتيب فاذا فرضنا ان نفقة بناء كل كتَّاب على حدتهِ هو ١٥٠ جنيهاً تبلغ نفقات ٣٣ الف كتَّاب ٥ ملايين من الجنيهات . وحينئذٍ نقع في مشكلة عظمى ايضاً وهي خلو اليد من النقود . فما الحيلة ؟ الجواب سهل وهو ان الامة ما دامت حية فالنقود توجد او لا بد من وجودها

النقود التي وجدت عند تأسيس الاهرام الجسيمة لِمَ لا توجد لبناء المدارس ؟ واذا كان يجوز للامم الحية اقتراض المال لانشاء السكك الحديدية والبرازخ والترع فلماذا لا يجوز اقتراضها لانشاء المدارس ؟

هذا وهناك طريقة اخرى لسهولة اجراء هذا المشروع وهي تجزئة مدة العمل الى عشر سنين لانهُ من البديهي ان مثل هذه المشروعات المهمة لا تتم دفعة واحدة كما انها لا تتم الاَّ باكتساب ثقة الامة ورغبتها في المشروع

الحاجة الى مؤتمر اسلامي عام

نرى المسلمين اليوم تنبهوا بعض التنبه في الاقطار الاسلامية كافة وهبَّ فضلاؤهم لانشاء الصحف والجرائد التي لها اثر عظيم في تنبيه الافكار والارشاد الى الخير والصلاح ونسمع ان مسلمي بعض البلاد ينشئون جمعيات خيرية وعلمية . هذه علائم خير نقر بها عين كل ناصح للانسانية ولكن لا يجوز لنا البتة ان نجتزئ بهذه العلائم الحسنة ثم نخلد الى الدعة والكسل . فللمستقبل الحسن لمن يدأب ويعمل . لا جرم ان المرء يرى اذا جال طرفهُ في الاقطار الاسلامية من مدينة فزان الشمالية الى مصر الجنوبية ومن مراكش المغربية الى جاوى المشرقية علائم الانحطاط اكثر من علائم الارتقاء

فقد عادت معظم المدارس مثابة للعاجزين والبطالين . ودثرت الصناعات الوطنية او اشرفت الى الدثور واصبح حظنا قليلاً من تجارة العالم ويدنا ضئيلة في الصرف والشؤون المالية ونصيبنا عدماً في التجارة البحرية . وليس لهذه الامة التي يبلغ عددها على ثلاثمائة مليون شركة مؤلفة من ثلاثين سفينة كما انها لا تملك مصرفاً رأس ماله خمسة ملايين جنيه مثلاً

ليس في ايدينا ما نعيش بهِ غير الاراضي الخصبة التي ورثناها عن آبائنا . تأتي لنا هذه الاراضي بالقمح والفلفل والبن والقطن والتز والفواكه وغيرها . ولكننا نجهل اساليب بيع

هذه الغلات بيعاً رابحاً . ويذهب جزء عظيم من ربح تلك الحاصلات من ايدينا الى ايدي التجار الاجانب وجزء عظيم الى شركات تسيير السفن الاجنبية

ولا تكاد تجد تاجراً مسلماً في جميع البلدان الاميركية والاوربية الاَّ في النادر واذا رأيت هناك تاجراً شرقياً فهو اما ارمني او روسي او يوذي او هندي او صيني

اذا صرفنا النظر عن التجارة الخارجية فما بالنا لا نعمل في بلادنا ايضاً . ها نحن نرى معظم التجارة المهمة في البلاد العثمانية والايرانية ومصر والمغرب الاقصى والهند بايدي النزلاء الذين يتقاطرون الى البلاد الاسلامية من اقطار العالم المختلفة

نحن لا نفتأ نقول : امطرت السماء نشرنا وابتت الارض فاكلنا ولكن ينبغي لنا ان نعرف اننا وان عشنا على العمل بهذه القضية في الايام الغابرة يستحيل ان نبقى بها فيما نستقبلهُ من الايام

اذا فقدت امة من الامم استقلالها ووقعت تحت حكم الاجنبي فانها تخسر خسراناً مبيناً غير ان هذا الخسران لا يقام لهُ وزن — في مذهبي — في جانب الخسارة التي تخسرها الامة التي تقاعدت وتواكلت ثم سقطت من مكانتها في ميدان العمل والاقتصاد

وما هو السبب في هذه الحالة الاليمة التي وقعت فيها الامة الاسلامية ليس لنا ان نقول : ان السبب هو الجهل ثم نسكت اذ يرد علينا سؤال آخر وهو : وما هو سبب الجهل ؟

اذا اغضي عن ترقي الامم الافرنجية الاَّ يجب على كل مسلم ناصح لامتهِ ان يسأل : كيف ارتقى الارمن والروم والكرج والبلغار واليهود والهندوس الذين كانوا قبل اليوم بنصف قرن يعيشون بيننا ويشاركوننا في معظم عاداتنا وآدابنا ونحن يقيناً وراءهم ننظر اليهم بعين الاعجاب

سامحنا ايها السادة عما يرثى لهُ ولكن لا يجوز لنا البتة ان نكتمها لان ذلك الكتمان هو عين الخطإ بل هو جناية عظيمة على نفوسنا . بل يحق لنا ان نجاهر بها في كل نادٍ ونسعى لتشخيص الداء حتى نصف لهُ الدواء

هل من الرأي ان يكتم الانسان مرضهُ اذا لم يكن عدوّ نفسهِ ؟ وليست مهمة من يكتم مرضهُ الاَّ اهمال

اذا كنتم تنتظرون الجواب عن الاسئلة السابقة من الخطيب فهو يبادر الى القول بانهُ اعجز من ان يجيب على امثال هذه الاسئلة العظيمة . لانهُ يبحث عن الجواب ولا يجد

ايها السادة ان استعداد الامة العربية للمدنية قد ثبت عندنا بتاريخها المتلألئ بهِ اللامع ويرشدنا الى استعداد الامة التركية للمدنية ما تركهُ لنا علماؤها من المؤلفات النافعة .

واطلال سمرقند تشهد بشغف هذه الامة بالعلم والعرفان . ثم الا ترى الفنلنديين والمجر يباروق الاقوام المتمدنة ويجارونهم في كل شؤونهم . ونحن نعرف ان هاتين الامتين والترك ينتمون من اصل واحد

القصد ايها السادة من سرد جميع هذه الادلة التاريخية اثبات انهُ ليس سبب انحطاط العرب والترك اليوم نقص في فطرتهم وضعف في استعدادهم . واما الدين الاسلامي الذي ندين به فهو دين يخاطب العقل ويحث على العمل والدؤوب وينوط نجاح الانسان بعمله . ولكن سيرتنا تخالف هذه الاصول الكريمة الدينية مخالفة ظاهرة . وما السبب في هذه المخالفة ايضاً

اني ارى ايها السادة ان الجواب على تلك الاسئلة المهمة وكشف النقاب عن اسباب انحطاط الامة الاسلامية لا يتيسر تيسراً كاملاً لفرد او فردين بل لا مندوحة للبحث في ذلك عن عقد مؤتمر اسلامي عام يجتمع فيهِ علماؤُنا وفضلاؤُنا ثم يتفاوضون في الشؤون الاسلامية

لا يفهمن احد اني باقتراح عقد مؤتمر على هذه الصورة ارمي الى غاية "باسلاميزم" اي الجامعة الاسلامية التي يتشاءم منها الاوربيون . وانما غرضي الوحيد من عقد هذا المؤتمر البحث عن اسباب انحطاط الامة الاسلامية وفتح ابواب النجاح في الامور الاقتصادية والاجتماعية واختيار السبل القويمة التي تصل بنا الى اخذ نصيبنا من المدنية الحاضرة الغربية

ولا ننكر انهُ كان لاكتشاف اميركا ورقي الصناعات والميكانيكات في الغرب تأثير يذكر في انتقار الشعوب الاسلامية وفقدان وجوه الكسب . غير ان العامل القوي في انحطاطها — على ما اظن — هو الجمود على بعض العادات والقواعد الواهية والاوهام والخرافات التي ورثناها عن آبائنا او تسربت الينا من الامم الاخرى بحكم الزمان . ومن اجل ذلك ابدي واعيد ان حاجتنا شديدة الى المؤتمر العام لكشف الحجب عن الحقائق

فاسمحوا لي ايها السادة والامر على ما ذكرت ان اقترح عليكم عقد مؤتمر اسلامي عام لا يتطرق قط الى البحث في الامور السياسية وتكون ابواب دارهِ مفتوحة لكل احد ممن يحبون استماع المذاكرات ونشر خلاصات المناقشات في الصحف المنتشرة وأرى ان يعقد المؤتمر في عيد الفطر من السنة القادمة او بعدهُ

ويحسن ان ينعقد هذا المؤتمر في الاستانة العليَّة او في مصر المركز الثاني . ولا ارى سبباً يحملنا على عقد هذا المؤتمر الذي يتفاوض فيهِ بالمسائل الدينيَّة والعمليَّة في جنيف مثلاً

ايها السادة : اذا واقتموني على هذا الاقتراح فلا بدَّ من التمهيد لهذا الامر الخطير منذ الآن . فيحتم علينا من اليوم تأليف لجنة من العلماء والمفكرين تشتغل بهذا التمهيد مثلاً : تحرر

هذه اللجنة الحكومة الحق بحيث الامر وتضع للمؤتمر برنامجاً اجمالياً وتعين زمن انعقاده وتتولى مراسلة من يرجعون اليها من سائر الاقطار

ولا ريب ان هذه اللجنة تفتقر الى قدر من النقود . ولكني لا اظن مطلقاً ان المانع يكون من الوجهة المالية

ومن مما يتبع ايها السادة ان يتفضل كل هذه اللجنة بما في استطاعته من المال

هل يجيب المسلمون الى داعي هذا المؤتمر؟ هذا سؤال أنا اجيب عن جزء منهُ قائلاً اني على ثقة من ان خمسة عشر او عشرين مندوباً روسياً ومن ايران يجيبون الطلب

ايها السادة : هذا ما اردت عرضهُ على حضراتكم في هذا الاجتماع وقد استوفيتكم زمناً طويلاً . فسألكم ان تصفحوا عن هذا العاجز صفحاً جميلاً . انتهى

هذا وقد رأينا ان نلحق الخطبة بصورة اعضاء الدوما (مجلس النواب) من مسلمي روسيا كما ترى في الصفحة المقابلة وهي مأخوذة عن الصورة التي نشرتها جريدة " وقت " ويظهر منها ان كثيرين من هؤلاء الاعضاء بالزي الاوربي حتى لا يمتازوا عن الاوربيين

وقد اعجب الحضور بما تضمنتهُ الخطبة من المعاني الجليلة وكانوا يصفقون للخطيب تكراراً ثم القوا لجنة للاهتمام بهذا المؤتمر تشمل جماعة من اكبر العلماء والوجهاء . وعند الخطيب ان العامل القوي في انحطاط الشعوب الاسلامية " هو الجمود على بعض العادات والقواعد الواهية والاوهام والخرافات التي ورثوها عن آبائهم او تسربت اليهم من الامم الاخرى بحكم الزمان " . فان كان الامر كذلك فالمسألة دينية لا جنسية ولا سياسية وعند الخطيب ان مدارها ليس على " اصول الدين " بل على " سيرة اهله " . وهذا هو عذرهُ على ما يظهر في جعل المؤتمر خاصاً باهل الاسلام مهما كان جنسهم اي سواء كانوا اصلاً من العرب او الترك او القبط او اليهود او السريان او اليونان او الارمن او الاكراد او الهنود او الزنوج وهلم جرًّا من الامم التي تدين الآن بالاسلام . ولا شبهة عندنا انهُ اذا نجح المؤتمر سيفي ابطال " العادات والقواعد الواهية والاوهام والخرافات " التي اشار اليها الخطيب يزيل عقبات صماء من سبيل طالبي الارتقاء فلا يبقى مانع يمنع مسلمي روسيا مثلاً من مجاراة سائر سكانها ولكنهُ لا يُصلح وحدهُ حكومة عقلية . ولا بدَّ من ان يشاركهُ امرٌ آخر وهو ازالة الحاجز الذي يفصل بين ملل المملكة الواحدة بجعل الالفة بين ارمن روسيا وارمن تركيا مثلاً اشد من الالفة بين ارمن روسيا ومسلميها وارمن تركيا ومسلميها كما هي الحال الآن حتى لا تبقى

اعضاء الدوما من مسلمي روسيا

الصف الواقف خان خانيكي - رشيد مهديف - امام نجم الدينوف - خامس محمدوف - امام شاكر توتيف - سلطانوف - زينالوف - قرنالوف - يعقوف - محمودف

الصف الجالس فطلوع تميد لحكيموف - شاه بال سيف الدينوف - امام عبدالله عثمانوف - مخدوم علي خالوف - امام محمد صادر حسنوف - سيف الله مقصودف - عمر موسين

عوامل الانقسام الديني عاملة على خراب البلدان الشرقية فانهُ لو كانت الالفة بين كاثوليك الماليا وكاثوليك فرنسا مثلاً اشد من الالفة بين كاثوليك الماليا وبروتستانتها لما استطاعت الماليا ان تبقى يوماً واحداً امام فرنسا

وياحبذا لو جعل المؤتمر غرضهُ البحث في ادواء المسلمين خاصة وفي ادواء المشارقة عامة معاً كانت ملتهم فانهم كلهم من مسلمين ومسيحيين ويهود وهنود متبارون في الانحطاط اذا قايسناهم بالامم الاوربيَّة الراقية

عيون التلامذة

اشرنا في الجزء الماضي الى هذه المقالة ولما كانت فائدتها جزيلة ومعرفة ما فيها لازمة لكل الوالدين وارباب المدارس ولكل من يضنُّ بعينيهِ ان يضعف بصرهما رأينا ان نلخصها في ما يلي

قال الكاتب ان الحيوان يشعر بما يتصل بهِ بحاسة اللمس ويميز طعمهُ بالذوق ورائحتهُ بالشم وصوتهُ بالسمع . والحاستان الاخيران تشعران برائحة الجسم وصوتهِ ولو كان بعيداً عن صاحبهما بعداً غير شاسع فيشعر الحيوان بما يتصل بهِ وبما هو قريب منهُ بهذه الحواس الاربع وتبقى حاسة البصر للشعور بالاشياء البعيدة فاذا دنت الاصداء منهُ فقد لا يسمع صوت مشيها ولا يشم رائحتها اذا جاءتهُ على ضد الجهة التي تهبُّ منها الريح فتفلت بهِ قبل ان يتقي شرَّها فلا حاسة البصر التي يراها بها وهي بعيدة عنهُ ولذلك فحفظ الفرد والنوع يتوقف على حدَّة البصر ورؤية الاجسام البعيدة وعليهِ تكون العينان مؤهلتين لرؤية الاجسام البعيدة اكثر مما هما مؤهلتان لرؤية الاجسام القريبة لان بقاء الاصلح من الحيوان في الجهاد العام اقتضى ذلك

ينتج مما تقدم انهُ اذا كانت عينا الانسان في حالتهما الطبيعيَّة فهما محكمتان لرؤية الاجسام البعيدة فاذا اراد ان يرى الاجسام القريبة اضطرَّ ان يجهدهما اي ان يقبض العضلات الهدبيَّة والعضلات التي تحرك كرة العين حتى يرى جليًّا

هذه حالة الانسان الفطرية اي ان عينيهِ مخلوقتان لرؤية الاجسام البعيدة ويستطيع ان يحكمهما لرؤية الاجسام القريبة . فيرى الاجسام البعيدة من غير جهد ويرى الاجسام القريبة بشيء من الجهد وحالما يقتضي غرضهُ من رؤية الاجسام القريبة تبسط العضلات التي قبضها فتعود عيناهُ الى وضعهما الطبيعي

وهذه حالة الامميين الآن ولقد كانت حالة الذين كبروا قبل تعلموا اما الذين تعلموا صغاراً